

## هجرة الأدمغة

بقلم: د. طيبي بن علي

### مقدمة

إن هجرة الأدمغة قديمة، وكان الغرض منها في الماضي، هو النهل من علوم وأفكار العلماء المشهورين في بلدان عديدة ولو بعيدة وبلغات مختلفة، وبالتالي كانت هجرة تطوعية وحرّة. يقول حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " اطلبوا العلم ولو في الصين " .

لكن بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت الهجرة جبرية، حيث أخذت الدول المنتصرة كالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي سابقا، ما تستطيع من العلماء الألمان لتطوير أسلحتها الصاروخية والذرية، بالدرجة الأولى، ثم علوم وتكنولوجيات أخرى.

وبعد استقلال دول العالم الثالث، خاصة بعد الستينات، زادت هجرة الأدمغة كثافة خاصة من الجنوب إلى الشمال، وهذه المرة لم تكن الهجرة تطوعية ولا جبرية، لكن الظروف المحيطة التوسع في الجنوب أدت إلى ذلك.

إذا كانت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، بالأمس، تأخذ العلماء بالقوة فالיום أصبح الأمر بالنسبة لها مختلف وسهل للغاية؛ يكفي إغراء مادي مع توفير الظروف الملائمة للبحث العلمي لأن الخبير المهاجر من الجنوب، في حقيقة الأمر، هو فار بجلده من بلده المتخلف

سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا، بالإضافة إلى التدهور الأمني، زيادة عن ذلك إغراء الغرب لهم بالجنسية وتوفير جميع الحريات.

إن جنسية الدولة المتقدمة أمل كل مهاجر؛ لأنه عندما يحصل على الجنسية الأجنبية الجديدة تصبح له حقوق المواطن في تلك الدولة، وفي نفس الوقت، يحمي نفسه من دولته القديمة التي غالبا ما تتابعه لسبب أو لآخر، خاصة إن كانت له أفكار لا ترضيها.

قد يكون سبب هجرة الخبير الأوروبي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إلى جانب المال، هي المخابر الحديثة المجهزة بمعدات متطورة جدا التي تساعد على تطوير أفكاره ونظرياته واختراعاته وعلمه.

توجد هناك في بعض الدول الغربية شركات مثل CARGERS INCORPORATED خاصة للبحث عن العلماء واصطيادهم من أنحاء العالم بهدف جذب أكبر عدد ممكن منهم، وخاصة المشهورين لا شك أن الظروف المادية والنفسية السيئة لدول العالم الثالث تسهل على مثل هذه الشركات مهمتها في هذه الدول.

(أ) أسباب الهجرة :

لا شك أن للهجرة أسباب كثيرة ومختلفة؛ تختلف من شخص لآخر ومن زمن لآخر ومن دولة لأخرى، وذلك حسب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية في كل دولة.

1- أسباب اقتصادية:

يظن الناس أن العلماء الذين يغادرون بلادهم الأصلية إلى الخارج من أجل المال وإن كان ذلك صحيحا بالنسبة للبعض، خاصة من الغرب، فإنه لا يكون كذلك بالنسبة للجميع. لا ننسى أن المخابر والمعدات والأجهزة المتوفرة واللازمة لتطوير مستواهم العلمي لها جاذبيتها الخاصة بها؛ إذ ينشر العلماء العرب المتواجدون في الغرب كتباً وبحوثاً تفوق بكثير ما ينشره كل

العلماء العرب في الوطن العربي الكبير، وذلك بسبب توفير تلك المعدات بالإضافة إلى الظروف المناسبة من كل النواحي.

لا شك أن الباحث من الدول المتخلفة يحصل في الغرب على مال لا يمكن الحصول عليه في بلده بسهولة، حتى ولو كان يحصل في بلده على تلك المبالغ، لكن الأكثر أهمية بالنسبة له هو الاستقرار النفسي والكرامة والأمن التي يجدها في الغرب بسبب الاستقرار السياسي والاقتصادي، لأن في بلده قد يتعرض للقمع والاضطهاد والحرمان بسبب أفكاره فقط.

إن العلم و المعرفة والمهارة مثلها مثل المواد الأولية أو رأس المال تأتي بنتائج جيدة إذا حسن استثمارها، وقد أحسنت الدول الغربية في استخدامها، وهذا ما أوصلها إلى مكانتها المتقدمة المرموقة. كلنا نعرف أن المرتبات في هذه الدول مرتفعة بالنسبة لغيرها مما يجذب لها علماء الجنوب ومرتفعة بالنسبة إلى بعضها البعض مما يجذب، أيضاً، العلماء من الشمال إلى من يدفع أكثر وعنده أحسن وأحدث وسائل البحث العلمي (1). يهاجر العلماء الأوروبيون والكنديون إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يتقاضون حوالي ثلاثة أضعاف ما يتقاضونه في أوروبا (2).

## 2- أسباب تعليمية :

إن جمود النظام الجامعي في العالم الثالث والبيروقراطية وفقر المكتبة الجامعية؛ التي لا تتوفر على الكتب المتنوعة والحديثة والمجلات والدوريات العلمية، وخاصة عدم التنسيق بين الشركات والوطنية والجامعات والمخابر في مجال قضايا التنمية، كل هذا يؤدي إلى تقليص البحث العلمي وركوده لكن، في نفس الوقت، يشجع على الهجرة (3).

تدفع الدول العربية مبالغ خيالية للشركات الأجنبية لتقوم بدراسات أو بمشاريع في الوطن العربي يستطيع أبناؤها العلماء دراستها وتصميمها وتنفيذها بأقل تكلفة لو كان هناك إخلاص ووعي وتخطيط وتنسيق الخ.

### 3- أسباب اجتماعية :

إن عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي في العالم الثالث والمحسوبية والوساطة والجهوية والرشوة والظلم والذل وتهميش العلماء بسبب أفكارهم وفقد الثقة في الحاضر وفقد الأمل في المستقبل كلها أسباب ساعدت ومازالت تساعد على هجرة النخبة المفكرة والمفيدة إلى الغرب (4) الذي لا يريد لنا خيرا في أوطاننا.

### ب) آثار الهجرة :

لا شك أن هجرة الكفاءات العلمية والمهارات التقنية من الدول النامية لها تأثير سلبي عليها إلى حد كبير على الحالة الاقتصادية والاجتماعية، وتعتبر من أخطر العقبات في طريق التنمية وخاصة التقدم العلمي، ولا شك أن تأثير الهجرة على التنمية خطير وقد تؤدي إلى فشلها.

---

Chem. Tech. and Biotech., vol.4, no.3, p.433. -1

Ibid. -2

World Bank: World Development Report, 1986. -3

Chem. Tech. and Biotech. Supra. -4

الدكتور : طيبي بن علي

إن التنمية الحقيقية هي التي تنبثق من داخل البلاد وبسواعد

وأفكار أبنائها ليستمدوا غذائهم من أراضهم وملابسهم من مصانعهم. إن منقذ الدول المتخلفة من التبعية الغذائية للاستعمار الجديد هو التقدم العلمي والتكنولوجي والتقني والبحث العلمي المستمر لحل مشاكلها الراهنة(1). ولا شك، أيضا، أن الدول الغربية تستفيد من خبرة هؤلاء الخبراء المهاجرين إليها دون أن تنفق على تكوينهم، زيادة عن ذلك حتى الطلبة المبعوثين للتكوين في الخارج يستقر معظمهم حيث تخرجوا.

في السبعينات عندما كان حال العرب أحسن مما هو عليه اليوم اقتصاديا واجتماعيا لم يعد حوالي 70 % من الطلبة العرب إلى أوطانهم (2). وما بين الخمسينات والثمانينات هاجر إلى الغرب أكثر من ثلث (3/1) الباحثين العرب أي حوالي مائة ألف (100000)(3) ، وكم يكون عددهم اليوم ؟ في حين تستخدم الدول العربية الخبراء الأجانب بأجور ضخمة وبالعملة الصعبة.

إن الأخطار الكامنة في هجرة العقول تنعكس في عدة مجالات

إن لم تكن تؤثر في كل المجالات:

## 1- آثار اقتصادية :

في مجال الاقتصاد مثلا أن الخسارة التي تلحق بالدول النامية من هجرة أبنائها الخبراء إلى الخارج لا تقدر بمال. قد تدفع هذه الدول بملايين الدولارات ثمنا لاتفاقيات تعقدها مع الشركات الأجنبية لتنفيذ بعض المشروعات التي كان من الممكن تنفيذها محليا(4) لو لم يهاجر الأبناء وأخلص الزعماء.

إن طلب القروض والمزيد من القروض وشراء الآلات واستيراد المهارات والتقنيات من الخارج لم تحل أية مشكلة نهائيا، وقد ثبت ذلك في الدول المتخلفة؛ رغم تلك المجهودات تزداد الفجوة الحالية بين الدول الصناعية والدول النامية. وما زاد الطينة بلة ظهرت فجوة جديدة في داخل هذه الدول الفقيرة بين أقلية مالكة والشعب الذي زاد فقرا وحرمانا.

---

1- Science, 2 May, 1986, vol. 232, p. 595.

2- المؤتمر الثقافي العربي الثامن، القاهرة، ديسمبر 1969، ص. 799.

3- Inter. Review Education. Supra.

4- Chem. Tech. and Biotech. Supra.

أما في مجال التعليم، تؤثر هجرة الأدمغة تأثيرا كبيرا، في الدول الجنوب، على الجامعات كمركز لتكوين الأجيال القادمة وكمخابر لتطوير البحث العلمي وكمناورة لنشر المعرفة في المجتمع وبالتالي تؤثر الهجرة على التنمية التي تستدعي التنسيق بين الجامعات والشركات العامة والخاصة كما هو الحال في الغرب.

ما دام المفهوم التعليمي التقليدي، الذي يفصل التعليم عن قضايا المجتمع، هو المسيطر في النظام التعليمي وما دامت الشركات لا ترجع إلى الجامعات الوطنية لحل مشاكلها تبقى الجامعة محكوم عليها بالانطواء؛ لأن رجال العلم في الجامعات في حاجة إلى مال ومعدات ومخابر ومشاريع للبحث العلمي كما هو الحال في الغرب. ولا يحدث ذلك بدون تنسيق بين الجامعات والشركات.

إن تضخم الخريجين الجامعيين بدون إيجاد مناصب عمل في تخصصهم لتطوير مستواهم العلمي أو عاطلين عن العمل، يؤدي بدوره إلى الهجرة، وبالتالي ندخل في حلقة مفرغة؛ نكون خبراء على حساب البلد لصالح الغرب و يبقى البلد على ما هو عليه من تخلف و يزيد الغرب تقدما.

### ج) عودة العلماء المهاجرين :

لا شك أن عودة هؤلاء العلماء إلى بلادهم كفيلة بأن تؤدي إلى تقدم علمي وتكنولوجي كبير، خصوصا وأن هؤلاء مطلعين على آخر

التطورات العلمية في الغرب. إن السر في التقدم العلمي هو المهارة والبراعة والكفاءة والخبرة لدى العلماء، وكل ذلك ينتقل مع العالم حيث ما كان.

من المعلوم أن العلماء الألمان الذين انتشروا في بعض الدول بعد الحرب العالمية الثانية كان لهم فضل كبير في تطوير التكنولوجيا، بصفة عامة، وعلم الصواريخ والذرة بصفة خاصة، في تلك الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي سابقا. ومن الممكن أن الغرض من ضخامة وقساوة حرب الخليج الثانية على العراق، واستمرار الحصار عليه حتى اليوم والتهديد بحرب أخرى هو القضاء على تلك المهارات العلمية العراقية.

إن تقدم الدول الصناعية ليس في مصانعها فحسب بل يكمن في المعرفة التي تجمعت عندها، من جراء التجارب الميدانية والأبحاث العلمية وثروة أبنائها الثقافية والعلمية وتدريبهم على استخدام تلك المعرفة على أحسن وجه؛ مثال ذلك خرجت ألمانيا واليابان من الحرب العالمية الثانية مدمرتان ومثقلتان بالديون ومع كل ذلك ففي خلال جيل واحد أصبحتا في صدارة الدول الصناعية المتقدمة بفضل مهارة علمائها.

على الدول التي فقدت علماءها بسبب الهجرة إلى الغرب، توفير الجو المناسب لتشجيعا لتلك الكفاءات على العودة إلى أوطانهم، وفي نفس الوقت، يشجع هذا الجو الملائم العلماء الجدد على البقاء في بلادهم من باب أولى. لا شك أن المحافظة على الخبير قبل الهجرة أسلمو أسهل، لأنه إذا ما هاجر إلى الخارج وتعود على حياة جديدة أحسن وكون علاقات خاصة أو تزوج وأصبح

عنده أولاد من الصعب عليه العودة، إلا إذا بذلت الدولة الأم مجهودات جبارة على الأقل، بإزالة العقبات التي كانت السبب في الهجرة، وإزالتها ضروري جدا حتى لا تكون سببا في هجرة جديدة للعلماء الناشئين مستقبلا.

و تكون إزالة العقبات بتوفير الكرامة للعلماء بعدم تفضيل الأجانب عليهم بدون سبب موضوعي والتخلص من عقدة الأجانب أو التستر بها، وتوفير الحرية الفكرية والسياسية والاقتصادية ومكافأتهم ماديا ومعنويا عندما ينتجوا وضمان مساواة الفرص بين الناس بعيدا عن الوساطة والمحسوبية والجهوية.

### الخاتمة :

إن أهم أسباب هجرة الأدمغة في العالم الثالث هي الأزمات السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والبيروقراطية والمحسوبية والجهوية والظلم وغياب العدل. وعوامل أخرى ثقافية ونفسية كل ذلك يشارك في إقناع العلماء بالهجرة.

إذا بقيت الظروف السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية على ما هي عليه في الوطن العربي سوف يهاجر ما تبقى من العلماء وغير العلماء للبحث عن مكان أحسن لهم. إذا كان الغرب، في عهد الاستعمار، أستغل مواردنا الطبيعية، فالיום وبعد الاستقلال، الذي مات من أجله الملايين، أصبح يستغل عقول أبنائنا لتغذية مصانعه.

بما أن الوطن العربي فقد عشرات الآلاف من علمائه بسبب الهجرة، وبما أن البعثات الطلابية إلى الخارج مكلفة جدا، زيادة عن ذلك لا يعود معظم الطلبة، وبما أن الدول العربية ليست فقيرة، لماذا لا يكون هناك تقارب بين هذه الدول لتذليل هذه المشاكل المستعصية .؟

هناك تصور بإنشاء جامعات عربية كبيرة متخصصة مثلا في الفيزياء و الكيمياء الزراعة الخ. وتكون مجهزة بأحدث التجهيزات، و تكون كل واحدة منها في دولة عربية مختلفة لمرسل إليها أبنائنا الطلبة المتفوقين بدلا من إرسالهم إلى الغرب، ويكون هناك تعاون فيما بينها في البحث العلمي حتى لا تتكرر البحوث في جامعات عديدة ، كما يجب على هذه الجامعات أن تواكب آخر ما توصلت إليه الاكتشافات والتكنولوجيات لكي تبقى في تجدد دائم، بالإضافة إلى إنشاء مجمع لغوي لترجمة آخر التطورات إلى اللغة العربية(1)؛ لمساعدة الطلاب الذين لا يجيدون اللغات الأجنبية وكذلك التشجيع على استعمالها وإعادة مجدها الضائع؛ ولتحقيق هذا يجب أن تتجه الشركات العامة والخاصة ذات المشاريع من أنحاء العالم العربي إلى هذه الجامعات لاستغلال الطاقات الفكرية الكامنة فيها .

لا شك أن هذه الجامعات الحديثة الضخمة المتخصصة قد تجذب إليها العلماء العرب الذين هاجروا من أجل رفع مستواهم العلمي فقط، وليس من أجل المال؛ لأن الشخص مهما كان عظيما في الغربية يبقى أجنبي، وفي بلده مهما كان الحال في بلده.